قضية الشيخ الواحدي

قصة بقلم وليد اخلاصي

حكم بالاعدام على الطبيب الواحدي الملقب بالشيخ الواحدي ، وقد جاء في حيثيات الحكم أن تنفيذه رهن بارادة الحاكم . فاحضر الرجل مكبلا بالسلاسل والشيخوخة ، وألقي عند أقدام الحاكم الذي قال له من بين اسنانه البيضاء :

ـ ها انت تحت رحمتي بعد ان كنت تحت رحمتك .

ـ لم تكن يوما ايها الحاكم تحت رحمة احد ، على يمينك سلاح وعلى يسارك سلاح ، فمم خوفك ؟

ـ لسانك ايها الشيخ !

ـ لساني ! لساني سيطير بعد قليل مع رأسي .

ـ قد نقطعه .

ـ لساني أم رأسي ؟

ـ لسانك .

ـ مضيعة للوقت أيها الحاكم ، اقطع الرأس فتختصر من الوقت الكثير الكثير ..

واشار الحاكم الى طرف المكان وقال متباهيا :

ـ أترى الى فوائد العلم ايها الرجل ، فرن جديد يعمل بلا وقود، اذا أصبحت فيه لم تمس من اهل الدنيا .

ـ اذن فاعدامي حرقا !

ـ ستكون اول الداخلين اليه ، فهو حديث العهد ، وهذا شرف لك .

ـ اذن فما الذي تنتظره ، ادخلني فرنكم كي ابرد .

ـ مقبل على الموت وتسخر ؟

ـ ومن قال اني اقبل على الموت ؟

ـ الحكم عليك .

ـ موتي هو البداية يا سيدي الحاكم .

ـ تعتقد اننا نخشى سخريتك ؟

ـ اذن فما الذي تنتظره ؟ هيا وأوقف السخرية قبل ان تصبح جدا.

فتأمل الحاكم ذلك الشيخ المتجبر وهز برأسه كمن يفكر وقال :

ـ تعتقد اني أخافك .

ـ أعتقد انك تخاف نفسك .

ـ ومم أخافها ؟

ـ تخاف ان تخونك فتعفو عني .

ـ هل عدت الى أساليبك في الايحاء ؟

واكمل الحاكم غاضبا :

ـ او تظنني واحدا من اتباعك السذج ؟

ـ بل أثيرك حتى تجهز عليّ فتنقذني من تسليتي لك .

ـ انت تسليني ؟ انت تثير اشمئزازي !

ـ هذا واضح يا سيدي ، ولذا أنت تريد اعدامي .

ـ انت الذي اردت اعدامك .

أوتعتقد ان عاقلا يريد أن يموت ؟

ـ خرقت القوانين ، ومن يفعل يمت ..

ـ لم اخرق قانونا ، الا اذا اعتبرت المساس بحقوقك خرقا للقانون.

ـ أولست انا الذي امثل القانون ؟

ـ ما دمت تقول ذلك وعلى يمينك سلاح وعلى يسارك سلاح ، فانت مصيب .

ـ ها قد عدت الى سخريتك !

ـ أوتسمي وصف الوقائع سخرية ؟

وانتفض الحاكم في مكانه ، واشار الى الجنود المدججين بالسلاح ان يبتعدوا . ففعلوا ، وقال فيما ينفض يديه :

ـ ها قد ذهبوا ، فماذا بقي لي لاخيفك ؟

ـ لم تخفني من قبل حتى تفعل الآن .

ـ اذن فشخصي هو الذي يخيفك ؟

ـ تماما يا سيدي ، ان الذي يخيفني هو شخص مثلك ، يملك كل شيء ولا يفعل اي شيء .

فصاح الحاكم بعصبية غير مالوفة :

ـ أوتعلمني ايها الشيخ الخرف ؟

ـ لست بخرف والا كنت افرجت عني ، ثم اني لا اريد ان اعلمك لياسي من نتيجة عملي .

فصر الحاكم بأسنانه وقال متضاحكا :

ـ اعلم .. اعلم انك تغيظني ، فالصائر الى موت يملك حق الاسراف في الكلام .

ـ لذا تجدك تملك حق الاسراف في الاساءة الى كل الناس .

ـ تقصد اني صائر الى الموت ؟

ـ الا اذا داخلك شعور بالخلود .

ـ وهل تعتقد خلاف ذلك ايها الشيخ ؟

ـ ما دامت تلك فكرتك فلم أنت خائف مني وتريد قتلي ؟

ـ لان بموتك حياتي .

ـ القضية اذن انا او انت .

ـ تماما .. الا اذا خضعت لي .
ـ وهل يخضع الخير للشر ؟
ـ دعك من ذلك ، فلن أنقاد الى حماقتك في محاولة اغاظتي .
وقفز الحاكم بخفة نحو الشيخ وأمسك به من كتفيه وهزهما ، وفيما ينظر الى عينيه المشعتين قال له :

ـ امامك الآن فرصة .
ـ العفو عني ؟
ـ ها قد بدأت تعقل يا شيخنا .
ـ أنت تعفو عني اذا خضعت لك ؟
ـ لا .. فليس هذا بهدفي ، لا أطلب خضوعك تماما بل انـي أساومك ، وثق انها فرصتك الوحيدة .
فصمت الشيخ مطرقا وتمتم :
ـ لو اني ساومت من قبل لكنت بقربك .
تراجع الحاكم بعنفوان غاضب ورمق الفرن بنظرة سرعان ما نقلها الى الاسير ، فقال الشيخ مرحا :
ـ انت تفكر حتما في تجربة فرنك الجديد . انا مستعد لتلبيـة طلبك يا سيدي !
ـ أعلم انك مشاغب وخطر ، ولكن لم اعلم من قبل انك مجنون ترفض فرصة تنقذ فيها حياتك .
ـ لو اعلم ان ثمة فرصة مقبـولة يمكن لها ان تنقذ حيـاتي لما رفضتها .
ـ حسنا ، فنحن نتفاهم .
ـ بل نتحادث .
ـ نتحادث ؟ وهل تعتقد ايها الرجل انك هنا لتسامرني ؟
ـ انا هنا لاموت ، ولكل محكوم بالاعدام فرصة في الكلام ، وقد انتهت فرصتي .
ـ ايها الرجل الغريب الافكار ، اعرض عليك فرصة لانقاذ رأسك وترفضها
ـ ومن قال لك اني ارفض ؟
فتمدد الحاكم في جلسته على العرش البلوري الذي كان يشـع ببريق لم يخطف عيني الشيخ . وقال الحاكم متنهدا :
ـ لقد قلبت موضوعك على جميع وجوهه ، وأخذت آراء الحكماء ورجالي المخلصين وعرضت امرك على العقل الالكتروني ، فلم يكن هناك سوى حل واحد .
ـ اعدامي ؟
ـ تماما !
ـ لذا فانا معرض لخوض تجربة حاسمة مع فرنك الذي لا يستخدم الوقود .
ـ هنا يمكن القول بأنني أحدق التفكير في موضوعك .
ـ هل نستبدل الفرن بالمقصلة مثلا ؟
ـ يا لك من همجي !
ثم اعتدل الحاكم في جلسته وسرح ببصره نحو الجدار الكبيـر الذي تتصدره لوحة العدالة . وقال بهدوء بالغ :
ـ ان اعدامك امر لا مفر منه ولكني فكرت ، احتراما لخصومتك القاسية ، في ان استبدل عقوبة الاعدام بالسجن المؤبد .
ومع ان الفكرة لاقت قبولا حسنا لدى الشيخ فانه لم يعلق عليها بكلمة او اشارة . جعل يفكر :
« تلك فرصتك لتنقل الى الآخرين افكارك . ما فائدة موتك ؟ قد تلقى في السجن واحدا او اكثر ، اذن تكون هناك فائدة » .
تساءل الشيخ بتوجس :
ـ وما الثمن ؟
ـ لا شيء يذكر .
ـ هيا وسمّ شروطك .
ـ هو شرط واحد .
ـ وما هو ؟
ـ ان تستعطفني .
ضحك الشيخ حتى اهتزت قيوده فاحدثت صوتا كأنه احتكـاك اسنان رجل مفرور وصاح :
ـ ان استعطفك ! ماذا تريد ان اقول لك ؟ ارحـم شيخوختي او اتوب ، اتوب اليك يا مولاي .
ـ لا .. بل اطلب الرحمة .
ـ وكيف تقترح أن تكون صيغة الطلب ؟
ـ اركع على قدميك وردد بخشوع « الرحمة يا سيد الجميع » .
ـ أما عن الركوع فقـد اجبرني عليه جندك من قبل ، واما الخشوع فلا بأس عليّ منه فهو يهذب النفس ، واما عن الرحمة ...
وتوقف الشيخ فيما انتصب الحاكم منتصرا وقال :
ـ ها قد بدأت تعقل !
ـ ومتى استطيع ان اردد طلبك ؟
ـ متى تشاء .
فانحنى الشيخ لتلامس ركبتاه الارض ، وكان يفكر في الايام التي يمكن أن يقضيها في السجن ، آنذاك ابتسم وجعل يردد بخشـوع « الرحمة يا سيد الجميع » . فصاح الحاكم :
ـ كررها ثانية !
ـ الرحمة يا سيد الجميع .

وفيما كان الشيخ يردد جملته ، كانت القاعة المصنوعة مـن الالومنيوم قد اكتظت بالناس من حاشية الحاكم ، تسربت من كـل المداخل ، وفي المرة الثالثة عمت ضحكات الناس وكان السخرية مـن الشيخ تفتحت ينابيع في ارض القاعة البلاستيكية ، فرفع الرجـل رأسه وعلم انه وقع في الفخ .
صاح الحاكم بهمجية :
ـ عفونا عنك ، وبات اعدامك سجنا أبدا !
فصفق الحضور بآليـة ، واشار الحاكم الى الجنود ، فحمـلوا الشيخ بعيدا ، وكانت الشماتة في عيون الحاشية تحاصر عيني الشيخ الزائغتين ، وفيما كان يسرد لنفسه « خسرت معركة وربحت حياة » صاح الحاكم من مكانه في صدر القاعة :
ـ ارجو لك اقامة سعيدة .
فردد الشيخ بضعف :
ـ شكرا لك !
ولكن الحاكم ما لبث ان قال :
ـ لم خصامنا ايها الشيخ ؟
ـ ولم تقاربنا !

وكان الظلام الذي خيم على الزنزانة التي رمي الشيخ عـلى ارضها ، قد نفذ الى العظام ، فتكوم في ركن رطب يفكر في موقفـه من طلب الرحمة ، أمصيب أم مخطىء ، ولكن أنينا خافتا خرج مـن ركن آخر ايقظ الشيخ ، فسعى الى مصدر الصوت فاذا برجل نائم يتقلب على فرشته الخشنة ، آنذاك أدرك الشيخ انه مصيب في طلب الرحمة رغم ابتسامات الشماتة .

في الصباح كان ثمة نور يسقط على الوجـوه الفرحة . هلل السجين قائلا :
ـ مات زميلي في الزنزانة منذ شهر .
ـ وكم مكثت هنا ؟
ـ عشر سنوات ولم يبق لي سوى اسبوع لاستعيد حريتي .
ـ ولم سجنت ؟

ـ ضربت شرطيا فأدميت أنفه .
ـ ولم ضربته ؟
ـ لانه ألقى القبض عليّ .
ـ ولم ألقى القبض عليك ؟
ـ لاني كنت أسرق .
ـ وماذا سرقت ؟
ـ خبزا ابيض ، واشياء لم أعد أتذكرها الآن .
ـ ولم سرقت ؟
ـ لاني كنت جائعا ، وأولادي كانوا يصرخون .
ـ هل أنت نادم الآن ؟
ـ نادم لاني لم اجهز على الشرطي تماما .
ـ لكنت أعدمت آذن .
ـ وما الفرق . عشر سنوات في هذا الظلام ، ومن يدري ماذا حلّ بعائلتي ؟
ـ انها تنتظرك حتما .
ـ وماذا يمكن ان افعل لها ؟
ـ تعينها على الحياة .

كان الشيخ يفكر في السجين ، كمن وجد كنزا ، فأمامه اسبوع لينقل اليه كل أفكاره ومبادئه ، واذا هو نجح تكون الرحمة التي طلبها صاغرا قد أثمرت رحمة طيبة . السجين الآن أرض خصبة يمكن لها ان تحتضن كل البذور . في ظلام الليل تحدث الشيخ :

ـ لم يسرق الانسان ؟
ـ لانه جائع .
ـ ولماذا يجوع ؟
ـ لانه لا يجد طعاما .
ـ ولماذا لا يجد طعاما ؟
ـ لانه فقير .
ـ ولماذا يكون الانسان فقيرا ؟
ـ لان هذا هو قدره .

توقف الشيخ في الظلام ، هز السجين من كتفيه وقال له :
ـ لا يريد الله للانسان ان يجوع . أنلم خلق الشمس للضياء فلم يحبسون عنا ما اراده الله لنا ؟

ـ لا ادري .
وتفكر الشيخ في أمر الرجل ، وعلم انه يمكن له ان يعلمه كيف يمكن له أن يدري .
ـ هل تحب الحياة ؟
ـ طبعا .
ـ هل تحب السجن ؟
ـ لا .
ـ اذا كانت فأس في يدك الآن فماذا تفعل ؟
ـ اهدم حائط السجن وأهرب .
ـ أوتعلم ما هي الفأس التي يملكها كل انسان ويهدم بها ما يمنع عنه الحياة او الحرية او نور الشمس ؟
ـ لا أعلم .
ـ ألا تعلم ان عقل الانسان كالفأس ؟
ـ لم أسمع بمثل هذا الشيء من قبل ، عقلي انا كالفأس ؟
ـ تماما يا بني .
ـ هل تعني ان بامكاني ان أنطح هذا الحائط برأسي فينهد فأهرب ؟

بعد يوم تمكن الشيخ من وضع صورة العقل في يدي السجين ، فابتسم الرجل وقال :
ـ الآن فهمت ، وماذا يمكنني أن افعل ؟
ـ استخدم عقلك دوما .
ـ ولكنك قلت انهم قد يصادرونه في اية لحظة .
ـ يصادرونه لفترة ، الا انهم لا يستطيعون قتله .
ـ وهل يمكن للعقل ان يقتل فيموت ؟
ـ اذا كان ضعيفا او هشا او جامدا .
ـ وكيف يكون ضعيفا ؟
ـ اذا لم يقو على مقاومة الآخرين فاستسلم لهم .
ـ وكيف يكون هشا او جامدا ؟

ـ هشا ، اذا نفذت اليه كل الافكار الاخرى فبات كالورقة الهشة تتلاعب به الرياح كيفما تشاء . وجامدا اذا لم يتحرك او يتقدم ، اي اذا لم يفكر .

فتساقطت الدموع من عيني السجين ، ليكفكفها بطرف كمه . شعر الشيخ بالنشوة وقال لنفسه « لقد انتصرت عليك ايها الحاكم » . تابع الشيخ حديثه :
ـ والتفكير يا صاحبي هو دليلنا الى ان العقل يتمتع بصحة جيدة .

فعادت الدموع الى وجه السجين . هتف الشيخ لنفسه « ألهذا الحد يمكن للمنطق ان يؤثر ؟ » . تابع الشيخ :
ـ وكما حدثتك من قبل ، فان العقل السليم لا يقبل ان تسود من حوله اشياء وظواهر غير منطقية .
فأجهش الرجل بالبكاء ، آنذاك أخذه الشيخ بين ساعديه وقال له بتأثر بالغ :
ـ لم البكاء يا بني ؟
فلم يجب السجين بكلمة بل ظل يبكي كالاطفال . وتساءل الشيخ « أتراه يبكي فرحا لاقتراب خروجه من هذا المكان ، أم يبكي حزنا لفراقي » ؟
ـ لم البكاء يا بني ؟
آنذاك شرق السجين دموعه ، وقال من خلال التنهدات :
ـ وأنت تتكلم .. وأنت تحدثني عن كل شيء يا شيخي .. وأنت تهز برأسك بثقة ، تذكرته ...
ـ من تذكرت ؟
ـ لحيتك السمحة يا شيخي ، ذكرتني بلحية التيس الوفي الذي كان يلازمني ايام حريتي .

صاح الشيخ في البئر المخنوقة ، صاح كالمسعور مناديا الحاكم :
ـ أسحب طلب الرحمة .. أطلب اعدامي ، لا رحمة بي الا باعدامي . الموت لي . اقتلوني اق ... تـ ... لو .. ني !

لم يستجب للنداء أحد بسبب بعد المسافة بين الحنجرة التي كانت تصرخ والاذن التي تسمع ، ورغم انتشار العيون الالكترونية تنقل جميع التفاصيل بما فيها خفقات القلب الذي تسارع وتسارع .. فان احدا لم يلاحظ تباطؤ دقات القلب الذي تضخم وتضخم حتى بات كبيرا بشكل لا يمكن تصديقه .

حلب (سوريا) — وليد اخلاصي